# مقام إبراهيم

إن المَقْصِد الأول من العبادات هو الامتثال لأمر الله ، والوفاء بحقه ، ومع هذا لا يخفى أن وراء العبادات آثاراً طيبةً ، ومنافع جمةً في حياة الفرد ، والجماعة ، والحجُّ هو أكثر هذه العبادات اشتمالاً على الأمور التعبدية ، التي لا تُعْرَفُ حكمتها ، معرفة تفصيلية على وجه التأكيد ، لكن الحج أوضح هذه العبادات أثراً في حياة المسلمين ـ أفراداً وشعوباً ـ كيف لا ؟ وقد قال الله عز وجل :

﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ ﴾ [الحج : ٢٧ـ ٢٨] .

إن هذا التعليل القرآني ، لهذه الرحله المباركة ، التي يقطعها الناس ، قادمين من كل فج عميق ، يفتح لنا باباً رحباً للتأمل في هذه المنافع المشهودة ، التي قدمها القرآن الكريم .

الحج شحنة روحية كبيرة ، يتزود بها المسلم ، فتملأ جوانحه

خشيةً وتقىً وعزماً على طاعة الله ، وندماً على معصيته ، وتغذي فيه عاطفة الحب لله ، ولرسوله ، ولمن عزَّرُوه ، ونصروه ، واتَّبَعُوا النور الذي أُنْزِلَ معه ، وتوقظ في المسلم مشاعر الأخوة لأبناء دينه ، في كل مكان ، وتوقد في صدره شُعْلَةَ الحماسة الدينية لدينه ، والغَيْرَةِ على حرماته .

إن الأرض المقدسة ، وما لها من أثرٍ في النفس ، وقوةَ الجماعة وما لها من إيحاءٍ في الفكر والسلوك ، كل هذا يترك أثراً واضحاً في أعماق المسلم ، فيعود من رحلته ، أصفى قلباً ، وأطهرَ مسلكاً ، وأقوى عزيمةً على الخير ، وأصلبَ عُوداً أمام مغريات الشر ، وكلما كان الحجُّ مبروراً ، خالصاً لله عز وجل ، كان أثرُه في حياة المسلم المستقبلية واضحاً ، لأن هذه الشحنة الروحية العاطفية تهزّ كيانه المعنوي هزاً ، بل تُنْشِئُهُ خلقاً آخر ، وتعيده كأنما هو مولود جديد ، يستقبل الحياة ـ وكله طُهْرٌ ونقاء ـ لهذا قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح : « **من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه** »[1] .

أداء فريضة الحج ، **تمام نعمة الله على المؤمن** ، لقد جعل الله البيت الحرام قبلةً للمؤمن ، يتجه إليه كل يومٍ خمس مرات في صلاته ، وهكذا شاءت إرادة الله أن ينشغل فؤادُ المؤمن بهذا البيت ، وهو بعيدٌ عنه ، إلى أن يؤدي فريضة الحج ، والحج تمام

---

(١) متفق عليه .

نعمة الله على المؤمن ، لأن المؤمن لا يحج إلا إذا كان مستطيعاً ببدنه ، الذي سلّمه الله له وقوّاه ، وبماله الذي ادخره للحج فائضاً عن حاجاته الأساسية ، وبنفقة أهله وعياله في غيبته ، فهو نوع من الغنى ، ومن تمام نعمة الله على المؤمن في الحج ، أن إيمانه بالله ورسوله ، كان في المستوى الذي حمله على مغادرة الأوطان ، وترك الأهل والخلان ، وإنفاق الأموال ، ومن تمام نعمة الله على المؤمن ، أنه ما حج بيت الله الحرام ، إلا وهو مؤدٍّ لجميع ما كلف به ، من عبادات شعائرية ، كالصلاة والزكاة والصيام ، وعباداتٍ تعاملية ؛ من توبة نصوح ، وأداءٍ لجميع الواجبات ، ووفاءٍ لكل الحقوق .

**الحج عبادة شاملة لكل أركان الإسلام** ، ففيه من **الصلاة** : أنك تذهب إلى بيت الله الحرام ، لتصلي فيه ، وقد قال عليه الصلاة والسلام :

« **صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاةٍ فيما سواه إلا المسجد الحرام ، وصلاةٌ في المسجد الحرام أفضل من مئة ألف صلاة فيما سواه** »[1] .

وفي الحج من **الزكاة** : إنفاق الأموال في التنقل ، والسُّكْنَى والطعام ، والشراب ، والرسوم ، وفي الحديث الشريف :

---

(١) حديث صحيح أخرجه أحمد ( ٣/٣٤٣ ، ٣٩٧ ) وابن ماجه ( ١٤٠٦ ) عن جابر .

« **النفقة في الحج كالنفقة في سبيل الله سبعمئة ضعف** »[1] .

وفي الحج من **الصوم** : أنك تبتعد عن المباحات ؛ من لبس المخيط ، والتطيب ، والحلق ، والتقليم ، وكلّها مباحة خارج الحج .

وفي الحج من معنى **شهادة أن لا إله إلا الله** ، وأن محمداً رسول الله : أنك تحج بيته الحرام ، تلبيةً لأمره ، وطاعةً له ، ولا أدل على ذلك من قولك في التلبية : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، وتؤدي مناسك الحج ، كما علمنا إياها رسول الله ﷺ حينما قال : « **خذوا عني مناسككم** »[2] .

الحج **عبوديةٌ لله عز وجل** ، عبوديةٌ لخالق السماوات والأرض رب العالمين ، إنَّ عبودية الإنسان لله تقتضي أن يبتعد عن التعالي على أخيه الإنسان ، ففي المسجد ـ مثلاً ـ من يَصِلُ أولاً يجلس في الصف الأول ، ومن يأتي متأخراً يجلس في الصف الأخير ، والذي يحدث أنك تجد من كان في مجتمعه في الصف الأخير ، قد تجده في المسجد في الصف الأول ، إنَّ هذه المساواة في العبودية لله عز وجل ، تخرج الإنسان عن التعالي ، وتجعله يتواضع ، بحيث يُحسُّ جميع المؤمنين أنهم يقفون أمام إلهٍ واحد ، لا ينظر إلى صورهم ، وهيئاتهم ؛ وإنما ينظر إلى قلوبهم وأعمالهم ، هذا في بيئة المسجد .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده وتصحيح السيوطي له : صحيح .

(٢) حديث صحيح رواه مسلم .

ولكن الله جل جلاله أراد أن يجعل هذه المساواة ، وهذا الخضوع ليس في بيئة محدودة ، ولكن في نطاق عالمي ، وفي بيئةٍ عالمية ، تجمع كل أجناس البشر ، نتميز كما نشاء في بلادنا ، وبين أهلينا ، ولكن عندما نصل إلى بيت الله الحرام ، لابد من أن نقف أمام الله متساوين ، كما خَلَقَنَا ، وكما سنقف أمامه يوم القيامة .

**الحج أدبٌ رفيع** مع عناصر الكون كلها ، فمن لوازم العبودية لله في الحج أن الله ألزم الحاج بالتأدب مع كل أجناس الكون ، مع الجماد في تقبيل الحجر الأسود ، ومع النبات في النهي عن قطعه ، ومع الحيوان في تحريم صيده ، ومع الإنسان في حرمة التشاجر معه ومجادلته .

**البكاء في بيت الله الحرام** من لوازم العبودية لله في الحج ، فالحاج حينما يدخل بيت الله الحرام ، ويطوف حول الكعبة المشرفة تنهمر عيناه بالدموع ، هذا البكاء تعبيرٌ عن الندم على ما سبق منه من ذنوب ، وتضرعٌ إلى الله أن يقبل توبته ، وأن يعفو عنه ، هذا البكاء تعبيرٌ عن ترك العُجْبِ والكبرياء ، والتذلل لخالق الأرض والسماء ، هذا البكاء تعبير عن أن الحاج تخلى عن كل شيء ، وخضع إلى الله في كل شيء ، ومع أن البكاء في الأصل ، مظهرٌ من مظاهر الضعف ، والحزن ، فإنه في الحج ليس كذلك ، هذا البكاء في الحج إحساسٌ عميق بأن السعادة الحقيقية هي في

القرب من الله ، « لو يعلم الملوك ما نحن عليه ، لقاتلونا عليه بالسيوف » ، « يارب ماذا وجد من فقدك ، وماذا فقد من وجدك » ، هذا القرب الشديد من الله عز وجل في أثناء البكاء ، هو الذي يجعل لهذا البكاء روحانيةً مفعمةً بالفرح ، فرح التخلص من الآثام ، ونيل رضا خالق الأكوان ، فرحة الانضمام إلى عباد الله الصالحين .

في بيت الله الحرام ، آياتٌ بينات ، **مقام إبراهيم** ، أي إن هناك آياتٍ كثيرة في مقام إبراهيم .

من هذه الآيات : أنَّ إبراهيم عليه السلام كان **أمة وحده** ، فقد اجتمعت فيه من خصال الخير ، مالا تجتمع إلا في أمَّة . . . ، تقول هذا أمين ، وهذا صادق ، وهذا كريم ، ولكن خِصال الخير كلها اجتمعت في إبراهيم عليه السلام ، ومن هذا مقولة : أن أمة محمد ﷺ معصومةٌ بمجموعها ، بينما النبي صلى الله عليه وسلم معصومٌ بمفرده .

ومن هذه الآيات البينات أنَّ حجم الإنسان عند الله **بحجم عمله** ، وأن إبراهيم عليه السلام ، من حيث العمل الذي أجراه الله على يديه ، عملُهُ يساوي عملَ أمَّة ، فإذا أردت أن تعرف مقامك ، فانظر فيما استعملك ، وهذا يذكرنا بقول الله عز وجل يخاطب النبي عليه الصلاة والسلام :

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

من هذه الآيات البينات ، أنَّ إبراهيم عليه السلام أقبل على بناء الكعبة ، وإعلائها تنفيذاً لأمر الله تعالى ، بإتقانٍ شديد ، والإتقانُ في تنفيذ الأمر ، دليل قطعي على **محبة الآمر** ، وهذا يذكرنا بقول النبي ﷺ :

« **إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه** »[1] .

من هذه الآيات البينات في مقام إبراهيم : أن الله خلق الكون وجعله يعمل بالأسباب ، فالذي يأخذ بالأسباب ، ويتقنها ، تعطيه هذه الأسباب النتائج ـ مؤمناً كان أو كافراً ـ لكن هناك حقيقةً كبرى هي أن خالق الأسباب فوق الأسباب ، بل هو مسببها ، إن شاء أعطاك من دون سبب ، وإن شاء منعك وأنت آخذٌ بالسبب ، **فالسبب في علم التوحيد لا يخلق النتيجة** ، لذلك في حركة الإنسان في الحياة ، ينبغي ألا يغفل عن أن خالق الأسباب ، ومسببها هو كل شيء ، سيدنا إبراهيم عليه السلام جاء بزوجته هاجر ، وابنه إسماعيل إلى موقع الكعبة ، الذي لا زرع فيه ، ولا ماء ، ولا وسائل للحياة ، في هذا المكان الخالي من وسائل بقاء الحياة ، ترك إبراهيم زوجته ، وابنه الرضيع إسماعيل ، وانطلق راجعاً ، فأمسكت هاجر بزمام دابته ، وقالت له : يا إبراهيم لمن تتركنا ، فلم يجب إبراهيم ، قالت هاجر : أالله أمرك بهذا ؟ فأشار إليها أن نعم ، قالت : إذاً لن يضيعنا ، هذه قضية إيمانية كبرى ، وهي أن **الله إذا أمرك بأمرٍ فبدى لك أنه يضر بمصالحك أو يحول**

---

(١) رواه أبو يعلى والحاكم والبيهقي ، وهو صحيح بشواهده ، انظر السلسلة الصحيحة رقم ١١١٣ .

**بينك وبين ما تتمناه فاعلم علم اليقين أن الآمر ضامن** ، وأن العاقبة للمؤمن ، وأن الدنيا تأتي وهي راغمة ، فمن أصبح وأكبر همه الدنيا جعل الله فقره بين عينيه ، وشتت عليه شمله ، ولم يؤته من الدنيا إلا ما قُدِّر له ، ومن أصبح وأكبر همه الآخرة ، جعل الله غناه في قلبه ، وجمع عليه شمله ، وأتته الدنيا وهي راغمة . وما من مخلوقٍ يعتصم بمخلوق دوني ، أعرف ذلك من نيته ، إلا جعلت الأرض هوياً تحت قدميه ، وقطعت أسباب السماء بين يديه ، وما من مخلوقٍ يعتصم بي من دون خلقي ، أعرف ذلك من نيته ، فتكيده أهل السماوات والأرض ، إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً .

من هذه الآيات البينات في مقام إبراهيم ، أنه **أُمِرَ أن يذبح ابنه** الوحيد إسماعيل ، وهو في سن الشباب ، ( فلما بلغ معه السعي ) وأبوه شيخٌ كبير وزوجته عاقر ، فلم يتباطأ في التنفيذ ، ولم يدعُ الله أن يرحم شيخوخته ، وأن يعفو عن ابنه ، وعلى الرغم من قسوة الابتلاء ، فقد شَرَعَ في التنفيذ ، أن يقدم الإنسان على ذبح ابنه ، الوحيد ، الشاب ، والأب شيخٌ كبير ، والزوجة عاقر لا تنجب ، إنَّ من يفعل هذا ، يحب الله حباً يفوق الدنيا ، وما فيها ، حباً أعلى من كلّ حب ، يقول عليه الصلاة والسلام :

**« لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين »**[1] .

---

(١) متفق عليه .

هذا ابتلاء حادّ ما كلف به المؤمن ، ولكن نستفيد من هذه القصة أنه لو استقبلنا كل حكمٍ من الله بالرضا ، نأخذ ثواب الطاعة ، لأمر الله ويرفع الله عنا القضاء .

﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾

[الصافات: ١٠٣ـ١٠٧] .

حينما يقبل المؤمن على تنفيذ أمر الله ، وهو يرى رؤيةً قاصرة أن تنفيذ هذا الأمر يضر بمصالحه المادية ، والمعنوية ، لكنه يؤثر طاعة الله ، والقرب منه على دنياه ، ينال عندئذٍ ثواب الطاعة ، وسعادة القرب ، وبقانون خفي ، لا نعرفه ، تتحقق مصالحه الدنيوية ، في أعلى مستوى ، وهذا معنى القول المأثور : **من آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً ، ومن آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً** .

إذا كلفك مساوٍ لك ، نِدٌّ لك ، إذا أمرك بأمر تسأله دائماً لماذا أفعل هذا ؟ ولكن إذا أمرك الله جل جلاله ، خالق السماوات والأرض ، العليم الحكيم ، الرحمن الرحيم ، إذا أمرك الله أمراً ، ينبغي أن تأخذ أمره بالطاعة ، بمقدار ثقتك في علمه ، ورحمته ، وحكمته ، فالله جل جلاله لا يريد لنا إلا الخير ، ولا يقضي لنا إلا بالخير ، وكلما قصر الفكر البشري عن إدراك الخير ، كان

الخير أضخم وأكبر ، لأن الخير في هذه الحالات أكبر من أن يدركه الإنسان بعقله القاصر ، قال تعالى :

﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢١٦] .

الله جل جلاله ، حينما يخاطب خلقه ، لا يخاطبهم بالتكليف ، افعلوا ولا تفعلوا ، إنما يدعوهم إلى الإيمان به ، فمن آمن به يكلفه ، لذلك تجد كل تكليف مسبوقاً في القرآن الكريم **بيا أيها الذين آمنوا** ، لأن الإنسان ، حينما يدخل مع الله في عقدٍ إيماني ، فقد آمن إيماناً قطعياً أن لله الكمال المطلق ، فإذا تلقيت الأمر الإيماني ، ولم تفهمه ، ونفذته فإنك ستجد الراحة في قلبك ، والصفاء في نفسك ، وحينما تقبل على تنفيذ أمر الله ، لثقتك بعلمه ، وحكمته ، ورحمته ، يكشف لك الحكمة منه ، فتعود بثمرتين : ثواب العابد ، وفهم العالم .

* * *

**بيت الله الحرام** ، مركز لدائرة ، تمر بأطراف قارات العالَمَيْن ؛ القديم والجديد ، والأرض اليابسة موزعة حول بيت الله الحرام ، بصورة منتظمة ، هذه الحقيقة أكدتها أحدث الدراسات العلمية ، لمركز البحوث الفلكية في أحد الأقطار العربية الشقيقة ، وذلك باستخدام الحاسب الآلي في حساب المسافات بين مكة

المكرمة ، وعدد من المدن التي تقع في أطراف العالمين القديم والحديث ، وقد ثبت بعد الحسابات التي أجريت على الحاسب الآلي أن أقصى أطراف الأرض ، في إفريقيا وأوربا ، وآسيا ، وهذا العالم القديم تقع على مسافة ثمانية آلاف كيلو متر من مكة المكرمة ، وأما بالنسبة لأطراف العالم الجديد ، وهو القارة الأميركية شمالاً ، وجنوباً ، وأستراليا ، والقارة المتجمدة الجنوبية ، جميع أطراف هذه القارات الثلاث ، تقع على مسافة ثلاثة عشر ألف كيلو متر من مكة المكرمة ، ولا يقابل مكة المكرمة على سطح الأرض من الطرف الآخر يابسة ، بل بحرٌ إنه المحيط الهادي ، إذاً ـ بحسب هذه الدراسة التي أجريت على الحاسب الآلي ـ تبين أن بيت الله الحرام هو المركز الهندسي لليابسة .

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٦ـ٩٧] .

* * *